الفصل الثالث
الأدب

ف ٥٣: الأدب كَفَنٌ من فنون الفكر العربي في الأندلس.

ف ٥٤: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، وكتابه «العقد الفريد».

ف ٥٥: أبو علي القالي - ابن الجسور.

ف ٥٦: أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي، وكتابه «سراج الملوك».

ف ٥٧: أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي - أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري - المظفر بن الأفطس - أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة بن المواعيني.

ف ٥٨: أبو الحجاج يوسف بن الشيخ البلوي المالقي.

ف ٥٩: المقلدون لمقامات الحريري والمعلقون عليها.

obeikandl.com

obeikandl.com

ف ٥٣ - «الأدب» كفَنٍّ من فنون الفكر العربي في الأندلس

يطلق لفظ «أدب» - عند العرب - على المعارف التي من شأنها أن ترفع من مستوى الثقافة الذهنية، وتؤدي إلى تحسين سلوك الناس في اجتماعهم بعضهم إلى بعض. وهم يجعلون المكان الأول بين هذه المعارف لفقه اللغة العربية والشعر وشروحه وتاريخ العرب وأيامهم، ثم تلي ذلك العلوم الدنيوية، وهي التي تقابل العلوم الدينية (القرآن والحديث والفقه). ويُدخلون في مفهوم الأدب - في بعض الأحيان - لطائف الذهن والألعاب وفنون التسلية، وينظمون في سلكه - في أحيان أخرى - المعارف التجريبية، تمشيًا مع ما ذهب إليه أرسطاليس في تصنيفه للعلوم.

ثم تطور مفهوم الأدب مع مضي الزمن، فصار يطلق على الكتب التي تجمع المتفرقات والأشتات، وتعرض من المعارف أطرافًا من كل فن، وتكثر فيها الحكايات التاريخية والأقاصيص والنوادر والبراعات الذهنية، مما يشبه في أدبنا الإسباني كتاب «غابة المطالعة المتنوعة Silva de varia leccion» لبيرو ميشيا Pero Mexia، أو يقرب من الكتب التي كانت توضع لتعليم الأمراء، وما إلى ذلك.

ف ٥٤ - ابن عبد ربه وكتابه «العقد الفريد»

وأقدم مؤلِّف أندلسي يُذكر في هذا الباب هو شاعر البلاط أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨/ ٨٦٠ - ٩٤٠) الذي ألممنا بذكره آنفًا (فقرة ١١)، وكان من موالي بني أمية ومدح نفرًا من أمراء هذا البيت آخرهم عبد الرحمن الناصر.

وكتابه الجامع في هذا الفن هو «العقد» الذي يعرف عادة باسم «العقد الفريد»، وهو يضم خمسة وعشرين كتابًا ينقسم كلٌّ منها قسمين، وقد جعلوا عنوان كل باب من أبواب كتابه اسم جوهرة مما تنظم منه العقود.

يبدأ ابن عبد ربه كتابه بكتاب «اللؤلؤة» في السلطان - و يريد به السياسة - فيتحدث فيه عن السلطان وعلاقته برعيته، وعن الحكومة وما إلى ذلك، ثم يعقب ذلك الكتاب الثاني ويسميه كتاب «الفريدة» في الحرب ومدار أمرها، ثم يلي ذلك كتاب «الزبرجدة» عن الأجواد والأصفاد، ويسهب في الحديث عن الكرم «والترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف، والعطية قبل السؤال واستنجاز المواعيد» وما إلى ذلك، ثم يفيض في الكلام عن أجواد العرب في الجاهلية والإسلام، وينتقل من ذلك إلى كتاب «الجمانة» فيتكلم عن الوفود - ويريد بها السفارات - ويلم بذكر المشهور من سفارات العرب؛ ويستدرج إلى كتاب «المرجانة» في مخاطبة الملوك، ثم ينتقل إلى كتاب «الياقوتة» في العلم والأدب؛ لأنهما «القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا، وفرق ما بين الإنسان والحيوان وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية».

وبعد أن يطنب في الكلام في فضائل العلم ينتقل إلى الحديث عن فنونه وشرائطه، ويتخلل ذلك طائفة من أخبار العلماء وطبقاتهم، وما يُروى عنهم من حكايات تدل على ذكاء وبراعة، ويتكلم عن طائفة من حميد الصفات كالحلم ودفع السيئة بالحسنة والسؤدد، ويعقب ذلك بالكلام عن الفأل والطيرة وعما ينبغي للصداقة والود من واجبات، وفي كتاب «الجوهرة» يتحدث عن الأمثال والحكم، ويختص المواعظ والزهد بكتاب «الزمردة»، ويفرد جانبًا كبيرًا من كتاب «اليتيمة» للكلام عن الشعوبية - وهم أهل التسوية.

ويتحدث في جزء كبير من كتاب «الياقوتة» الذي مر ذكره عن تأديب الصغير، ويستطرد من ذلك إلى الكلام - في نفس الباب - عن طائفة من الخصال الحميدة، وعن أساليب الكناية والتعريض والتلطف في قول ما لا يمكن المواجهة به، ويحكي طائفة من النوادر، ويتكلم عن اللغة وعيوبها وفضائلها وغرائب النحو

ونوادر الكلام، وعن فضائل المال وأوجه إنفاقه، وعن الشيب والشيخوخة، ويبدأ كتاب «الجوهرة» بالحديث عن أمثال رسول الله ﷺ، ثم يسرد طائفة من أحاديثه والمأثور من حكم بعض العلماء، وعما يضرب به المثل من أحوال الرجال والنساء والحيوان مع مجموعة من الأمثال مرتبة حسب موضوعاتها، ثم يتكلم عن القرآن والعبادات والصلوات، ويفرد للخُطُب بابًا خاصًّا يورد فيه طائفة كبيرة منها في شتى المناسبات.

ويتحدث في كتابه «الدرة» عن النوادب والقبور والخطب التي تلقى عليها ورسائل التعزية والمراثي، ويختص كتاب «اليتيمة» بالكلام عن النسب وفضائل العرب، وفي كتاب «العسجدة» يتحدث عن كلام الأعراب، وعما قالوه من جيد الكلام ويروي بعض ملحهم ونوادرهم في المناسبات المختلفة، ويختص الأجوبة بكتاب «المُجنَّبة» فيعرض منها فيه مختارات لطيفة، وفي كتاب «الواسطة» يروي طائفة من الخطب.

أما كتاب «المجنَّبة الثانية» فيفرده للتوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة، ويدور كله عن الكتّاب وما ينبغي لهم وما يجوز في الكتاب وما لا يجوز، مع بعض ما قيل في القلم من الأمثال وأوصاف المحبرة والحبر والكتب والرسائل وما إلى ذلك.

ويختص كتاب «العسجدة الثانية» بالخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، ويوجز أخبار الخلفاء الراشدين والأمويين في الشرق والأندلس إلى أيام عبد الرحمن الناصر، وفي «اليتيمة الثانية» يتحدث عن أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، ويورد في خلال ذلك أطرافًا من تاريخ العرب وأيامهم في الجاهلية، ويتحدث في كتاب «الجوهرة الثانية» عن المعلقات و«فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه» و أعاريضه وعلل القوافي وما يتصل بذلك.

ويعقد كتابًا خاصًّا تحت عنوان «الياقوتة الثانية» للغناء واختلاف الناس فيه ويتحدث عن الأصوات والمغنيين، ويلي ذلك كتاب «المرجانة الثانية» عن النساء وصفاتهن المختلفة والطلاق ومكر النساء وغدرهن وما إلى ذلك.

ويلي ذلك كتاب «الجمانة الثانية» في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين، وفي كتاب «الزبرجدة الثانية» يتحدث عن طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان، وفيه يتحدث عن الدور والملابس، وعن علاقة الإنسان بالعجماوات وعن الجغرافية والطب والتمائم.

ويعقد بعد ذلك كتابًا خاصًّا تحت عنوان «الفريدة الثانية» للكلام عن الطعام والشراب، وما ينفع الصحة وما يؤكل، وعن النبيذ وما تخمَّر من الشراب، ثم يختم الكتاب بكتاب «اللؤلؤة الثانية» عن الفكاهات والمُلَح، مع طائفة من الحكايات والنوادر والألغاز والأحاجي.

ذلك هو بعض ما يضمه هذا الكتاب من متنوعات ومتفرقات، وقيمته وفائدته في إطلاعنا على أحوال الحضارة الإسلامية في عصره أعظم من أن تُقدَّر؛ لأنه يعرض علينا ما كان ينبغي أن يحيط به المتحضر المتعلم في ذلك العصر من معارف.

أما قيمته بالنسبة لتاريخ الأندلس فتنحصر في أنه أول كتاب من نوعه كتب في الأندلس ووصل إلى أيدينا، وفيه أقدم عرض لتاريخ بني أمية الأندلسيين. ويعتبر هذا الكتاب - فيما يتصل بتاريخ الفكر الأندلسي - «أكبر مظهر لتبعية الأندلس الفكرية للمشرق، وهو يُعيِّن لنا ذروة هذه التبعية. ولا زال هذا الكتاب متداولاً بين أيدي المشارقة يستخدمونه ويفيدون منه، ولا يستغني الإنسان في استخدامه عن الفهارس الأخيرة التي وضعها محمد الشافعي على طبعته التي أصدرها في كلكتا بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٧»[1].

ف ٥٥ - أبو علي القالي - ابن الجسور

أبو علي القالي (٢٨٨ - ٣٥٦/٩٠١ - ٩٦٧) ممن وفدوا من أهل الأدب المشارقة على الأندلس ونال فيها حظوة عظيمة في عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر. ومولد أبي علي بمَنَازْجِرْد - على مقربة من بغداد - من ديار بكر، وإنما قيل «القالي»؛ لأنه سافر إلى بغداد مع أهل «قالي قِلَى» وهي من أعمال ديار بكر[٢].

وقد أتقن علوم اللغة والشعر والنحو على طريقة البصريين، ثم وفد على الأندلس في سنة ٣٣٠/٩٤١، وهناك قعد لتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها. وقد عني باللغة عناية تفوق ما صرفه إلى غيرها، ثم عهد إليه عبد الرحمن الناصر في تأديب ولده وولي عهده الحَكَم، ولدينا أسماء بعض ما ألّف من الكتب في النحو، ولا شك أن تلميذه أبا بكر الزبيدي أفاد من هذه الكتب فائدة كبيرة وتأثر بها.

وبين أيدينا الآن جزء من كتابه المسمى «كتاب العالِم» وهو في الحديث، ثم «كتاب الأمالي» (وقد طُبع في بولاق سنة ١٣٢٤هـ)[*] التي أملاها على تلاميذه من الأندلسيِّين، وهو كتاب متفرقات يعرض طائفة من الأحاديث التي تشير إلى الرسول ﷺ، وفصولاً متفرقة في العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم، وأخبارًا تاريخية تتصل ببعض شعرائهم في عصر الخلافة، وقِطَعًا من النظم والنثر أخذها عن شيوخه.. إلخ.

وقد أهدى الكتاب إلى عبد الرحمن الناصر وقال في إهدائه: «.. فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أحسن تجارة، فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت نفسي بحفظه؛ حتى حَوَيْتُ خَطِيرَهُ وأحرزت رفيعَه، ورويت جليله وعرفت دقيقه، وعقلت شاردَه ورويت نادرَه، وعلمت غامضه ووعيت واضحه، ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، ونزّهته عن

(*) وأحسن طبعاته وآخرها طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٦.

الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديه لمن يعلم فضله، وأجلبه إلى من يعرف محله، وأنشره عند من يشرفه، وأقصد به من يعظمه ..»[*].

وقد أشرنا فيما سلف (فقرة ١٤) إلى ما تصدى له صاعد البغدادي من تأليف كتاب «أمالٍ» يضاهي به أمالي القالي.

أما ابن الجَسور (أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد بن الحُبَاب ٣١٨ أو٣١٩ - ٤٠٠هـ/٩٣١ أو٩٣٢ - ١٠١٠م) فكان أولَ أساتذة ابن حزم في الحديث والتاريخ، وكان ابن الجسور تلميذًا لقاسم بن أصبغ الذي برع في الوثائق والأحكام، كما كان «خيِّرًا فاضلاً أديبًا شاعرًا»، وقد كتب كتابًا عنوانه «الذَّيلَ المُذَيَّل» يغلب أن مادته كانت شعرًا وأدبًا، وقد ضاع.

ف ٥٦ - أبو بكر الطرطوشي وكتابه «سراج الملوك»

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي الملقب «بابن أبي رَنْدَقَة»، ولد سنة ٤٥١/١٠٥٩، وأصله من طرطوشة، وكان قد صحب القاضي أبا الوليد الباجي بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه هذا الأخير، [وقرأ الفرائض والحساب بوطنه] وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم في إشبيلية[٣].

وكان الطرطوشي زاهدًا متورعًا يغلب عليه الخوف من الله، وكان يعيش عيشة صلاح وتقوى متقللاً من الدنيا، قوَّالاً للحق، وكان يقول: «إذا عرض لك أمران - أمر دنيا وأخرى - فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى»[٤]. وقد خرج من الأندلس سنة ٤٧٦/١٠٨٣ إلى المشرق، ودخل بغداد والبصرة ودمشق ثم

(*) أبو علي القالي: الأمالي، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦، ص١.

استقر في مصر، وقضى بقية حياته فيها وتوفي في الإسكندرية[٥] سنة ١١٢٦/٥٢٠ أو ١١٣٠/٥٢٥ على قول آخر.

وقد ترجم له «شاك» إلى الألمانية شعرًا، ونقل عنه فاليرا - شعرًا أيضًا - هذا البيت:

أقلب طرفي في السماء تردداً ... لعلي أرى النجم الذي أنت تنظر

ولبقيت القطعة كما يلي:

وأستعرضُ الركبان من كل وجهة ... لعلي بمن قد شم عَرفك أظفرُ

وأستقبل الأرياح عند هبوبها ... لعل نسيم الريح عنك تخبِّر

وأمشي ومالي في الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

وألمح ما ألقاه من غير حاجة ... عسى لمحة من حسن وجهك تسفرا[٦]

وتحدثنا الكتب عن مؤلفات للطرطوشي ضاع معظمها، بعضها في علوم القرآن وبعضها في الأخلاق أو في مسائل الجدل[٧]. ولكن شهرته في العالم الإسلامي ترجع إلى كتاب «سراج الملوك» الذي ألّفه للمأمون البطائحي الوزير الفاطمي (طبع في بولاق ١٢٨٩هـ)[*]، وموضوع الكتاب: واجبات الملوك والفضائل والخلال التي ينبغي أن يتحلوا بها، ويتحدث عن خصالهم في السلم والحرب فيقول:

«فجمعت محاسن ما انطوى عليه سيرهم - خاصة من ملوك الطوائف وحكماء الدول - فوجدت ذلك في ستٍّ من الأمم وهم: العرب والفرس والروم والهند والسند والسند هند. فأما ملوك الصين وحكماؤهم فلم يصل إلى أرض العرب من سياساتهم

(*) طبع بعد ذلك مرارًا ولكنه لم ينشر نشرة علمية إلى الآن. ونحن نرجع هنا إلى طبعة المكتبة العربية بالقاهرة (القاهرة ١٩٢٥).

شيء كثير؛ لبعد الشقة وطول المسافة؛ وأما من عدا هؤلاء من الأمم فلم يكونوا أهل حكمة بارعة، وقرائح نافذة، وأذهان ثاقبة، وإنما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة، فنظمت ما أَلْفَيْتُ في كتبهم من الحكمة البالغة، والسيَر المستحسنة، والكلمة اللطيفة والظريفة المألوفة والتوقيع الجميل، والأثر النبيل، إلى ما رويته وجمعته من سيَر الأنبياء عليهم السلام، وآثار الأولياء، وبراعة العلماء، وحكمة الحكماء، ونوادر الخلفاء، وما انطوى عليه القرآن العزيز الذي هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات، ومغاص الجواهر المكنونات: إن اختصر فلمحة دالة وإشارة خفية، وإن أطال فألفاظ بارعة وآيات معجزة. هو الهادي من الضلالة، والحاوي لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وهو يقصّ في ثنايا الباب الحادي والستين من كتابه - «في ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها»[*] - خبر وقعه وادي «لكة» ويذكر كيف قُتل فيها لذريق واحتُزّ رأسه وبُعث به إلى موسى، وكيف أرسله هذا الأخير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك[*]. وفيه كذلك حكايات ذات أهمية عن نظام جيش المنصور وقيادته وعن القضاء في أيامه، وفيه أخبار عن وقوف الفقهاء في وجه السلطان وحدِّهم من سلطانه، وإشارات إلى رُذمير الأول ملك أرجون وموقعة «الكُراز»[*] وأسباب انهزام المستعين بن هود فيها، وغير ذلك.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية الأستاذ «الأركُن» أستاذ العربية في برشلونة، وإليك نموذجًا من كلامه عن أساليب الأندلسيين في الحرب[٨]:

(*) ص ٣٢٦ وما يليها.

(*) ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

(*) تسمى في النص موقعة وشقة، انظر السراج، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

صفة ترتيب الجيش عند اللقاء

«فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا، وهو أرجى تدبير نفعله في لقاء عدونا، أن نقدم الرجالة بالدرق الكاملة، والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة، فيصُفُّوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم، ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم، وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون الذين تمرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيآتهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجال بالمزاريق، وصدور الرماح تلقاهم فأُخذوا يمنة ويسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله. ولقد حدثني من حضر مثل هذه الوقعة في بلدي طرطوشة قال: صافقنا الروم على هذا الترتيب فحملوا علينا، فبينا رجل منا كان في آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه علج من العدو فأصاب غرته فقتل».

ف ٥٧ - ابن أبي الخصال، ابن عبد البر، ابن الأفطس، ابن المواعيني

يعتبر أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي (٤٦٥ - ١٠٧٢/٥٤٠ - ١١٤٥) مقلدًا لأبي علي القالي والحصري القيرواني صاحب «زهر الآداب». وهو من فَرْغَلِيط، قرية على مقربة من شَقُورة في كورة جَيّان. وكان يلقب برئيس كتاب الأندلس[٩].

واشتهر أمره لفضائله الكثيرة واشتغل كاتبًا لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وكان صديقًا لابن عبدون وابن بسام. وكانت له شهرة في النحو والبلاغة والتاريخ والشعر، وكان كما يقول المراكشي: «آخر الكتّاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى»[١٠]، وقد ضاع كتابه المسمى بـ: «سراج الأدب» ولم يبق لنا من

آثاره التي تُعَرِّفنا به إلا بعض ما ألف شعرًا ونثرًا في حياة الرسول والصحابة، وخاصة قصيدته في نسب النبي ﷺ.

ومن المؤلفات الجديرة بالذكر في موضوع الأدب كتاب «واجب الأدب»[11] لموسى بن محمد سعيد العنسي اليحصبي، والد الأديب المؤرخ الشاعر علي بن سعيد صاحب «المُغرب» وغيره (ف ٧٨)، وكتاب «اللآلئ» للبكري وقد ألفه في شرح «الأمالي»، وكذلك ألف أبو محمد بن السيد البطليوسي كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»[12].

وقد ألف الفقيه ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الرحمن النمري)(ف ١٢٠) كتابًا لابن الأفطس صاحب بطليوس عنوانه «بهجة المجالس وأنس المُجالس مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات»، وهو مجموع من الحكم والحكايات، يتكلم فيه عن الحياء والتواضع والعادات الحسنة والسيئة، وعن مكارم الأخلاق والسؤدد والإمارة، وفي حمد الحلم وذم السفه، وفيه حكايات عن الولد والوالد، والأقارب والموالي، والصديق والعدو، و «جامع متخير في الإخوان» وما ينبغي عليهم بعضهم لبعض، وعن الوعظ، وعن الثقلاء والطفيليين، وعن ذم الناس ومساوئه، وآداب الصحبة[13].

وكان المظفر بن الأفطس (٤٣٦ - ٤٥٣/ ١٠٤٥ - ١٠٦٢) صاحب بطليوس نفسه أديبًا ذا شهرة ظائرة، وكان واسع المعارف في شتى العلوم، وكان يتخذ من الكتّاب أصدقاء له، وكان جمّاعًا للكتب يقتني في قصره خزانة عامرة. وقد صنف «الكتاب المظفري»، «وفيه تاريخ على السنين وفنون وآداب كثيرة»، كما قال ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس، وقال عنه المقري: «يشتمل على فنون وعلوم من مفازٍ وسير ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب»[14].

وفي خلال القرن الثاني عشر الميلادي برع في هذا النوع من التأليف ابن المواعيني، وهو أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة، من أهل قرطبة (توفي سنة ١١٦٨/٥٧٠)، وكان تلميذًا لابن العربي وابن أبي الخصال، ودخل في خدمة الموحدين سنتين.

ووضع كتابًا من طراز الكتب التي نتحدث عنها في هذا الفصل هو «ريحان الألباب وريعان الشباب»، لدينا منه نسخة مخطوطة في مكتبة المجمع الملكي للتاريخ بمدريد، جعله في سبع «مراتب» في أبواب متنوعة، «فالمرتبة الأولى مرتبة تدريج النمو والارتقاء إلى مراقي السمو والاعتلاء، والثانية مَرْتَبَةُ لمع من قانون العربية ونبذ من الألفاظ اللغوية، والمرتبة الثالثة مرتبة الإبهام بالمعاريض والكلام المحتمل التعريض، والرابعة مرتبة الفصاحة في البلاغة، وجامع في لوازم إنشاء الصناعة، والخامسة في مرتبة نظام القريض والتزام ميزان العروض، والسادسة مرتبة اقتضاب شجرة النسب ومنتهاه من ولد آدم ونوح إلى جذم العرب، والسابعة مرتبة اختيار الأشعار والأخبار وما يتعلق بها من مأثور الحديث والآثار .. إلخ»[١٥]. وأطول أقسام الكتاب آخرها، ويروي المواعيني فيه تاريخ بني أمية وبني العباس، ويذكر أخبار فتح الأندلس، ويلم يذكر من ولي الأندلس من المسلمين وأنسابهم إلى سنة ٥٥٩/ ١١٦١[١٦].

ونجد في «شرح قصيدة ابن عبدون» لأبي محمد عبد المجيد بن بدرون (ف ٣٧) مواد كثيرة تدخل في باب هذا الضرب الموسوعي من التأليف (الأدب)، وكذلك نجد في كتاب «ملك النحل» لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى الحكيم اللخمي الغرناطي، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٣٩٠/٧٩٢ ميلادية، وهو يتناول الكلام في نشأة العلوم والفنون وتطورها ويتحدث عن الظاهرين في كل علم وفن، وتتخلل الكتاب كله الحكم والأمثال.

ف ٥٨ - يوسف بن الشيخ البلوي المالقي (٥٢٦ - ٦٠٣/١١٣٢ - ١٢٠٧)

كان «موفور الحظ من علم اللغة والأدب، متقدمًا فيهما مشاركًا في الفقه والأصول، من العلماء العاملين، مؤيَّدًا على الطاعات»(*). وله رحلات إلى المشرق جمع فيها ملاحظات طريفة كوصفه لمنارة الإسكندرية، وهو أكمل وأدق ما لدينا عن هذا الأثر الجليل[١٧].

وقد وضع لابنه «كتاب ألف باء» ليعلمه ويؤدبه (طبع في القاهرة ١٢٨٧هـ)، وهو أشبه بموسوعة جامعة لفنون الثقافة العامة، وقد كتبه في أسلوب بليغ والتزم فيه السجع بين الحين والحين، ورتب مواده على حروف المعجم.

تناول ابن الشيخ في كتابه موضوعات في الحساب والطبيعة والنبات والحيوان، وتكلم عن الإنسان (صفة أعضائه وملامح وجهه وفضائله ورذائله)، وتحدث في علم الاجتماع والشريعة والأديان والمذاهب وفقه اللغة ومخارج الحروف والنحو ومعاجم اللغة وعلم الصرف والشعر والحكايات والأساطير. والكتاب عبارة عن موسوعة مختصرة تجمع أطراف ثقافة أوسط الناس في عصره وتجعلها في متناول قارئه.

ف ٥٩ - المقلدون لمقامات الحريري والمعلقون عليها

تعتبر مقامات أبي علي محمد قاسم بن الحريري (عاش من ٤٤٦/١٠٥٤ أو ١٠٥٥ إلى ٥١٥/١١٢٢) من أوسع كتب الأدب العربي ذيوعًا في العالم الإسلامي. وكان الحريري من أهل البصرة، وهو من أسرة عريقة ذات فضل في ناحية قريبة من قرية «مَشَان البصرة»، وقد درس في البصرة ثم تولى البريد فيها.

وبدأ يكتب «مقاماته» سنة ٤٩٥/١١٠٢ على الأغلب، وأرسلها على لسان

(*) ابن الأبار: تكملة، رقم ٢٠٨٩.

شخصية تخيلها لشيخ جليل، وجعل الكتاب خمسين فصلاً سمى كل واحد منها «مقامة»، إشارة إلى اجتماعات العلماء والأدباء في قصور الملوك والحكام. وكانت هذه المجالس تسمى: المقامات، وكانت الأحاديث فيها تدور حول النحو والأدب، وكان المجتمعون فيها يتنافسون في إظهار ما لديهم من براعة وعلم.

وهذه الشخصية التي تجري على لسانها «المقامات» هي شخصية أبي زيد السروجي، يذهب السيوطي إلى أنه كان شيخًا جليلاً، ويقدمه لنا الحريري مرة شحَّاذًا شريدًا، ومرة أخرى أديبًا أو واعظًا، ومرة ثالثة صعلوكًا ذا حيلة وبديهة حاضرة، وهو ينتقل من قوم لقوم، ومن جماعة لجماعة، ويلقي في كل مكان يحل به من الكلام ما يشهد بعلمه الواسع باللغة ويَدُلّ على ظرفه وتوقد ذهنه ومجونه؛ بيد أن «المقامات» لا يجمع بينها إلا رابطة واحدة هي صدورها كلها عن شخصية أبي زيد السروجي(*).

وإنه لمما يستلفت الذهن ويدعو إلى الدهشة، ذلك الشبه العظيم بين هذا الأثر الأدبي وذلك الطراز المعروف في أدبنا الإسباني باسم: «قصص الصعاليك la novela picaresca»، وهو موضوع جدير بالدراسة. وقد ذاعت مقامات الحريري ذيوعًا عظيمًا في حياة مؤلفها؛ حتى ليقال إنه راجع سبعمائة نسخة منها وأجازها، هذا على الرغم مما رماه به بعض خصومه من أن الكتاب ليس له، وإنما لرجل مغربي وزعمه الحريري لنفسه. ولم يقتصر ذيوع المقامات على أوساط المسلمين، بل أقبل عليها النصارى واليهود وترجمها نفر منهم إلى لغاتهم.

وقد وصلت مقامات الحريري إلى الأندلس، وكان لها بين أدبائه صدًى بعيد، ومضى نفر من الأندلسيين ينسجون على منوالها، فنجد الفقيه ابن القصير (أبا جعفر

(*) حاجي خليفة: كشف الظنون (استمبول ١٣١١)، جـ٢، ص ٤٩٦.

عبد الرحمن بن أحمد الأزدي المتوفى سنة ١١٨٠/٥٧٥) ينشئ «مقامات» بين ما كتب من رسائل أدبية وخطب ومواعظ.

وكذلك ألف أبو طاهر محمد بن يوسف السرقسطي الإشترقوني (نسبة إلى إشترقونة Estercuel) مجموعة «مقامات»[١٨] لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين، وكذلك وضع أبو طالب عقيل بن عطية القضاعي المراكشي[١٩] شرحًا على مقامات الحريري.

وقد توفي عقيل سنة ١٢١١/٦٠٨، وهو مراكشي المولد طرطوشي الدار، وكان تلميذًا لابن بشكوال وتولى قضاء غرناطة، وكان شاعرًا مجيدًا احتفظ لنا ابن الخطيب في «الإحاطة» بأطراف من شعره، وقد اشتهر بمعارضته لابن عبد البر. وكان أكبر شراح «مقامات» الحريري في العالم الإسلامي أندلسيًا من شريش، وهو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (المتوفى سنة ١٢٢٢/٦١٨)، وكان رجلاً واسع العلم يَعُد من بين شيوخه الكثيرين أبا عبد الله محمد بن زرقون القاضي وأبا منصور بن جبير، وكان بارعًا في علوم اللغة والعروض، وقد جمع كتاب «النوادر» لأبي علي القالي (ف ٥٥) وشرح كتاب «الإيضاح» للفارسي وكتاب «الجُمَل» للزَّجَّاجي.

وذكر ابن الأبار أنه لقي الشريشي في بلنسية، وقرأ عليه جزءًا من شرحه على المقامات وأجاز له الشريشي رواية بقيتها، «وقد قيل: إن له ثلاثة شروح للمقامات الحريري، ولم يترك في كتاب من شروحه فائدة إلا استخرجها ولا خريدة إلا استدرجها، فصار شرحًا يغني عن كل شرح تَقدّمه ولا يُحتاج إلى سواه في لفظ من ألفاظها، وقد أخذ من شرح الفَنْجَديهي شيئًا كثيرًا، كما ذكره فيه»[*]. ومما

(*) حاجي خليفة: كشف الظنون، حـ٢، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

يدلنا على أهمية شرح الشريشي أن الناشرين المحدثين يجعلونه على هوامش طباعتهم للمقامات. وقد ذكر سيلفستر دي ساسي أنه استعمل في شرحه لمقامات الحريري كثيرًا من الشعر الذي أورده الشريشي في شروحه وتأكد أن الشريشي كَانَ حريصًا على الدقة فيما أورده من نصوص، وأنه استعمل شروحًا أخرى ضاعت اليوم. هذا والشريشي لا يكتفي بما يضع على المقامات من الشروح الأدبية بل يضيف من علمه الواسع طائفة عظيمة من الموضوعات ذات الأهمية البالغة[٢٠].